SPRINGBOARD Journal

No. 1, Volume 7, 2015

جامعة الحكمة، ألورن، نيجيريا

AL-HIKMAH UNIVERSITY

ILORIN, KWARA STATE-NIGERIA

2. Usman, A.M. & **Diop, A.D**. (2015) : الإنشاء العربي ومدارسه عبر التاريخ
(Arabic Composition and its Schools across Ages). ***Springboard Journal***. 7 (1); 182-199. Published by AL-Hikmah University, Ilorin Nigeria.

وباخطابات الفنية هذه تعالج مجالس النواب المسائل القومية والدولية في جلساتهم الرسمية، كما تناقش بها الأندية المسائل العلمية والأدبية. وبها أيضا تنجذب القضاة إلى من ألقى دعواه في المحاكم القاء ماهرا، لما فيه من رونق الفصاحة وتأثير البلاغة ودقة البيان مع قوة الحجة.

ولم تقتصر فوائد الإنشاء لما ذكر

نا فحسب، بل تزيد على ذلك بأننا في أكثر الأحيان نريد أن نتحدّث مع أعضاء عائلاتنا أو جيراننا أو أصدقائنا، إما في التهاني وإما

التعازي وإما في غير ذلك، وهم في مكان بعيد عنا، فنحتاج إلى الرسائل نقدم بها ما تلجلج في صدورنا في سطور فنبعث بها سرا إليهم. فهل يمكن هذا بدون إنشاء؟ وكثيرا ما نطلب الوظيفة تحت الحكومة أو غيرها من المؤسسات ولا نستطيع هذا الطلب، فما لفم أو وجها لوجه، فنلتجئ إلى الرسائل الرسمية فنجعل أغراضنا في قوالب إنشائية جذابة فتقضى لنا حاجاتنا بكل سهولة.

هذا وإن للإنشاء بإضافة إلى ذلك فائدة خالدة كالتي نلمسها في كتب القصص القيمة من النقد الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادى والعلمي والأدبى وغير ذلك. فهذه الكتب القيّمة التي أنتجها ذهن الإنسان وخياله يشار إليها بالبنان دائما لما فيها من تلك القيم المذكورة.

فكم سمعنا الأدباء يذكرون الهمذانى والحريرى لمقاماتهما الشهيرة واليازجى لمقاماته "مجمع البحرين،"؟ وكم سمعناهم يذكرون في العصر الحديث طه حسين لكتبه "الأيام" وشجرة البؤس، و"على هامش" وغير ذلك؟ وإذا سمعت العرب يذكرون "توفيق حكيم" فاعلم أنهم لا يفعلون ذلك إلاّ لبراعته في المسرحية كما في كتابه "أهل الكهف". فكم ذكر الغربيون "سكسبير" كأنه ليس من جنس الإنسان؟ وكم رأينا النيجيريين يذكرون "وُولِي سُوينْكَا" و"تَايْ سُولَارِنْ" كأنهما مخلوقان من طين غير طينهم؟ أتظنّ أنهم يذكرونهم مجّانا؟ كلا، لا يذكرونهم إلّا لأجل كتبهم في القصّة والرواية و.

وفوق ذلك كله، إن علم الإنشاء فنّ يعرف به صحيح الكلام من فاسده من حيث الشكل والمضمون، لأن قواعده لا تغفل الألفاظ والمعاني بدون معالجة ، ولا الأساليب والموضوعات بدون تحليل ولا الطرق والمناهج بدون بيان، ولا أنواع النثر الفني بدون توضيح أغراضها على حدة.

فعرفنا من هذا البيان أن فوائد الإنشاء لا تقل درجة عن فوائد البحث. فلا عجب إذا اهتمّ به الأدباء والمثقفون اهتماما عظيما، وعلّق عليه منهج التعليم أهمية كبيرة في كل مرحلة من مراحل التعليم. وهذا البحث كغيره من البحوث العلمية يرمي إلى تتبع النثر الفني الذي أنشأه العرب والمستعربون من العجم في مختلف العصور الأدبية لكشف النقاب عن الأسس التي يرتكز عليها إنشاء الرسائل والخطب والقصص والروايات والمقالات لدراستها،ومراجعة النصوص الأدبية لاستخراج الطرق التي يستفيد

بها الدارسون والقراء الأحرار في إنشاء الكلام الصحيح المناسب للمقام وحال المخاطبين من الملوك والأعيان أو الأقران، و استخراج الشواهد والنماذج من الأعمال الأدبية القديمة والحديثة لتنوير أذهان المتأدبين الناشئين

تعريف الإنشاء:

الإنشاء: لغة الخلق والاختراع والإبداع والابتكار والتنظيم، ومنه قوله تعالى: **"إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً"** (سورة الواقعة: آية 35) أي خلقناهنّ واخترناهنّ وأبدعناهنّ ونظمناهن وابتكرناهنّ. ومنه قوله أيضا: **"نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ 60عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ** (سورة الواقعة: الآية :61)، وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم وفق تلك المعاني.

وأما في الاصطلاح فله عدة معان منها تعريف الشيخ عبد الباسط الأسمى حيث قال: "علم الإنشاء صناعة يعرف بها كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها بلفظ يطابق مقتضى الحال."(1)

وأما ابن صدر الدين في كتابه آداب المنشيء فعرفه بأنه "علم يبحث فيه عن المنثور من حيث أنه فصيح وبليغ ومبادؤه مأخودة من تتبع الخطب والرسائل واستعداده من جميع العلوم(2) وفي كتاب الإنشاء الواضح للأستاذين محمد الإبراشي وقاسم أمين عرفا الإنشاء بأنه "تعليم التلميذ كيف يتكلم كلاما صحيحا وكيف يعبر عن أغراضه في لغة صحيحة وكيف يكتب كلاما صحيحا يشبه في موضوعه ما يتكلمه هو في المنزل وفي الشارع وفي المدرسة في غير حصة الإنشاء،(3) وفي كتاب منهج الإنشاء للثقافي عرفه فيه بأنه "إنتاج فني أتي به ذهن الإنسان وخياله شفويا أو كتابيا(4)

والإنشاء عند ابن رشد عبارة عن جميع أطراف الكتابة من تأليف الكتب والخطب والرسائل نظما ونثرا كما يحيط الجنس بكل نوع من أنواعه.(5)

إذا تأملنا التعريف الأول نرى أنه أفادنا علما بأن الإنشاء هو استخراج المعاني من مصادرها وتأليفها بالتعبير عنها بألفاظ تليق بالمقام. ويفهم من هذا التعريف و أن الإنشاء هو تعبير عن المعاني والأفكار والمحسوسات بألفاظ صحيحة مناسبة للموضوع ولائقة بحال المخاطب أو المخاطبة أو المخاطبين

أما التعريف الثاني فهو قد قصر الإنشاء على البحث عن المنثور الفصيح والبليغ من الكلام فقط ولا يعدّ الشعر أو المنظومة منه.

وأما تعريف ابن رشد فهو قد وسّع معني الإنشاء نطقا وكتابة حتى أحاط بكل نوع من أنواع الكتابة شعرا ونثرا. وهو لا يميز بين البحوث الأكاديمية وبين غيرها من الانتاجات الأدبية

وإذا راجعنا تعريف الأستاذين محمد عطية الابراشي وقاسم أمين نلاحظ أنه لا يعتبر الإنشاء إلا طريقة من طرق التعلم لتدريب الناشئين على التعبير عن أغراضهم باللسان أو بالقلم بكلام صحيح ملائم للمقام وحال من يخاطبونهم من الناس

وأما كتاب منهج الإنشاء فقد عدّ الانشاء والكتابة شيئا واحدا لأن الإنشاء كما عرفه عبارة عما أنتجه الإنسان من قصة ووصف أو رسالة أو مقالة من جهة ذهنه وخياله باللسان أو بالقلم.

وبالرغم من اختلاف هذه التعريفات وتداخل بعضها في بعض من حيث الدلالة فإننا نستطيع أن تستخرج منها أن الإنشاء هو: تعبير عن الأغراض بعد تكوين الأفكار فيها بكلام صحيح مناسب للمقام وحال المستمع أو المستمعين أو القارئ أو القارئين ، ونستنبط منها أن للإنشاء مصادر يستمدّ منها وأسس يعتمد عليها وهي : مفردات اللغة ،وقواعد النحو والصرف، والبلاغة والخط والعروض وغيرها من العلوم والآداب. ومما نستطيع أن نستخرجه من التعريفات السابقة الطرق والأساليب الشائعة بين الخطباء والكتّاب.

وأما الكتابة فهي كما عرفها الشيخ عبد الباسط الأسمى "مخاطبة الغائب بلسان القلم أحسنها ماوفت بالمقصود، وقامت مقام مرسلها في إظهار مراده(6) وهي في نظري "تدوين اللفظ بلسان القلم أو ما قام مقامه لمخاطبة الغائب

الإنشاء الشفوي ورجاله في العصر الجاهلي

يرجع تاريخ الإنشاء العربي إلى العصر الجاهلي، وذلك أن العرب بما وهبهم الله من فصاحة اللسان وسحر البيان كانوا ينشئون القصص والفكاهات كما كانوا ينشئون الخطب والوصايا والمنافرات في مختلف أنديتهم ومجالسهم في الجاهلية. وكانت بعض أقوالهم تجري مجرى الأمثال فتسير بها الركبان في الأمصار. وكان كهانهم يلقون كلامهم مسجعا بطريقة جذابة حتى تأثر بهم المتحدثون من بلغائهم. ولكن من دواعي الأسف أنهم لم يحفظوا هذه الإنتاجات الفنية بالكتابة لغلبة الأمية على سكان البادية وعدم اهتمام المتمكنين من الكتابة من سكان المدن مما أنشأوه من أحاديثهم.[7] والمناسبات التي كانوا ينشئون فيها أحاديثهم عديدة وأغراضها كثيرة ، وأهمها ما يلي:

1- التحريض على القتال والأخذ بالثأر
2- إصلاح ذات البين
3- المنافرات والمفاخرات
4- السفارات والوفود
5- خطب النكاح
6- الوصايا
7- وعظ وتأمل وتوجيه[7]

ومن خير ما يمثل ذلك خطبة هاشم بن عبد مناف في قريش وخزاعة ،حيث يقول :

"أيها الناس، نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل، وبنو النصر بن كنانة، وبنو قصى بن كلاب، وأرباب مكة وسكان الحرم؛ لنا ذروة الحسب ومعدن المجد. ولكل في كل خلف، يجب عليه نصرته وإجابة دعوته إلا من دعا إلى عقوق عشيرته، وقطع رحم.

يا بنى قصى أنتم كغصنى شجرة، أيهما كسر أوحش صاحبه، والسيف لا يمان إلّا بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه، ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغي.

أيها الناس، الحلم شرف؛ والصبر ظفر؛ والمعروف كنز: والجود سؤدد؛ والجهل سفه: والأيام دول؛ والدهر غير؛ والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله. فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد؛ ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء؛ وأكرموا الجليس يعمر ناديكم؛ وحاموا الخليط يرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم.

وعليكم بمكارم الأخلاق، فإنها رفعة؛ وإياكم والأخلاق الدنية، فإنها تضع الشرف؛ وتهدم المجد. وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته ورأس العشيرة يحمل أثقالها ومقام الحليم عظة لمن انتفع به"[8]

فأنديتهم ومجالسهم وأسمارهم ومختلف ملتقياتهم تعتبر مدارس لصغارهم وشبابهم حيث يتعلّمون عند كبارهم كيف ينشئون أحاديثهم وخطبهم وقصصهم فى مستقبل حياتهم الاجتماعية على اختلاف أنواعها. وطرق التعليم والتعلم عندهم هي الرواية والحفظ وتقليد الفصحاء والبلغاء من فحول خطبائهم كما قال الإمام الشافعي:

إن لم تكونوا منهم فتشبهوا إن التشبه بالكرام فلاح [9]

الإنشاء الشفوي والكتابي في مدرسة النبي والخلفاء الراشدين في عصر صدر الإسلام

الإنشاء الشفوي ومدارسه :-

لما جاء الإسلام بشعاع شمسه وضوء قمره وقدّم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسالته إلى الناس انقسم العرب إلى قسمين : قسم آمن به وقام وراءه في نشر الدعوة الإسلامية بين القبائل في مختلف أمصارهم ، وقسم آخر أنكر عليه رسالته واعترض عليه في دعوته، وبالتالي وجدت الخطابة أرضا خصبة تنمو فيها وتزكو، وميدانا واسعا تتجول فيه فأخذ الرسول يلقي خطبه المشهورة المتحلية باقتباسات من القرآن الكريم وسائر الكتب المقدّسة المنزلة على الأنبياء والمرسلين السابقين لإقناع المناهضين لدعوته فازداد بذلك عدد المسلمين ، وقد تأثر الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الخطب كما تأثروا بالقرآن المجيد في مختلف خطبهم و وصاباهم وغير ذلك مما أنتجوه وقتئذ، وقد تعددّت المناسبات والظروف التي تلقي فيها الخطب منها: الخطب المنبرية التي تلقي أيام الجمع ، والتي يلقيها وفود العرب على الرسول صلى الله عليه وسلم ويردّ عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك التي يلقيها القواد للتحريض على الجهاد. وكما كثرت الخطب كثرت المنافرات بين المسلمين وبين قبائل العرب الوافدة على النبي صلى الله عليه وسلم [10]

ومن أنواع النثر التي نجمت ساعتئذ عقد المعاهدة بين المسلمين وكفار مكة ،والخطبة التي ألقاها الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بعرفة بقوله :

"الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفيسنا ومن سيئات أعمالنا. ومن يهد الله فلا مضّل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثّكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد، أيها الناس، اسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها. وان ربا الجاهلية موضوع؛ وإن أول ربا أبدأ به ربا عميّ العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة؛ وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب؛ وإن مأثرة الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود. وشبه العمد

ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس إنّ لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق: ألا يوطئنّ فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرّح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس إنما المؤمنون أخوة: فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! فلا ترجعنّ بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض؛ فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس إنّ ربكم واحد؛ وإن أباكم واحد: كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجميّ فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! فيبلغ الشاهد الغائب. والسلام عليكم ورحمة الله.[11]

ومنها نموذج من خطب الحفلات الرسمية. لما بايع المسلمون أبابكر الصديق بالخلافة خطبهم قائلا:

أحمد الله وأثني عليه.

"أما بعد، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني.الصدق أمانة، والكذب خيانة. والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أريح حقه إن شاء الله؛ والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا يدعه قوم إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله: فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم. رحمكم الله.(12)

الإنشاء الكتابي:

كانت الكتابة معروفة قبل ظهور الإسلام في بلاد العرب عند بعض سكان المدن وخصوصا عرب الشمال ومنهم تسربت الكتابة إلى بعض قريش بمكة المكرمة إلا أنهم لم يدوّنوا إنتاجاتهم الأدبية بالكتابة بل كانوا يحفظون من إنتاجاتهم النثرية أو الشعرية ما رأوه جيدا وصالحا للانتفاع به في المستقبل.

ولما نزل القرءان الكريم وأمر بالقراءة والكتابة أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يحث المسلمين على تعلم الكتابة، ولا سيما بعد غزوة بدر عندما طلب من أساري بدر أن يفدي كلّ واحد منهم نفسه بتعليم

عشرة أشخاص من أولاد المسلمين، وكذلك طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الذين تعلّموا الكتابة من صحابته أن يوثقوا له كلما نزلت عليه سورة أو آية من القرآن الكريم بالكتابة والتدوين حتى كان له ما فوق ثلاثين من الكتّاب منهم الخلفاء الراشدون ،وطلحة، والزبير، وحذيفة اليماني، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم. **وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر** بعض كتّابه أن يكتبوا له رسائله التي أرسلها إلى الملوك والأقيال ومن رسائله إلى الملوك رسالته إلى هرقل عظيم الروم:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ،أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرّتين ،فإن تولّيت فإنما عليك إثم الأريسّين.

"ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله، ولانشرك به شيئا، ولايتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " (13)

وبذلك بدأت الكتابة تتطور بعده على أيدي الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية

تطور الإنشاء الشفوي والكتابي ومدارسهما في العصر الأموي

بدأت الفترة الأموية عند ما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة بعد مقتل سيدنا علي- كرّم الله وجهه- وتنازل له الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين.وفي هذه الفترة ظهرت فرق إسلامية مثل الخوارج والشيعة ، والحزب الأموي ،الحاكم فاشتد بينها الخصومة والجدال وبذلك تطورت الخطب كما تطور الشعر حول ما كان يجري في المجتمع من القضايا الدينية والسياسية ولا سيّما بعد ما أعلن الخليفة معاوية بن أبي سفيان للناس عن جعل الخلافة وراثة في بني أمية.

وكان معاوية أدهى العرب في السياسة. وكان له خطب كثيرة وآخرها ألقاها على المنبر بعد ما حمد الله وأثنى عليه حيث قال:

"أيها الناس إنّي مِن زَرْعٍ قَدِ اسْتَحْصَدَ، وقد طالت عليكم إمرتى حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي، وإنه لا يأتيكم بعدي إلا من هو شر مني كما لم يأتكم قبلي إلا من كان خيرا مني وأنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. اللهم إنى أحببت لقاءك فأحبب لقائي" (14)

قطري بن الفجاءة

هو من قبيلة مازن، خطيب شاعر من زعماء الخوارج وأبطالهم وقادتهم وبلغائهم. خرج أيام بنى أمية ، ودعا لنفسه بالخلافة عشرين عاما، ثم قتل بطبرستان سنة 79هـ.

قال في خطبة من خطبه بعد ما حمد الله وأثنى عليه:

" أما بعد، فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات، وراقت بالقليل وتجهت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها غرارة ضرارة، خوانة غدارة، وحائلة زائلة، ونافذة، أكّالة غوّالة(15)

وكذلك تطورت الكتابة في هذا العصر على أيدي كتّاب الخلفاء الأمويين وعلى أيدي العلماء والفقهاء والأدباء الذين نبغوا في العلوم والآداب ساعتئذ.

فهذه الخطب والكتابات على اختلاف أنواعها منذ العصر الجاهلي إلى فترة قليلة قبل سقوط الدولة الأموية ليس لها أصول محددة أو قوانين معينة يتمسك بها الخطيب أو الكاتب في إعداد كلامه بل كانوا ينتحون خطبهم ورسائلهم على منوال السابقين من الفصحاء والبلغاء وأول من تكلم في قواعد الإنشاء والعلوم التي يستنيرها الكاتب ووضعها على سبيل الإيجاز إنما هو شيخ الكاتبين وإمام المنشئين عبد الحميد الكاتب آخر كتّاب الخلفاء الأمويين في رسالته التي أوصى فيها الكتّاب الديوانيين بأصول الكتابة المهمة حيث قال:

"أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتي فى هذا الكتاب من صنعتكم، فإن الكاتب يحتاج في نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى يشق به فى مهمات أموره أن يكون حليما في موضع الحلم، فهيما في موضع الحكم، مقداما فى موضع الإقدام، محجاما فى موضوع الإحجام...يضع الأمور فى مواضعها والطوارق فى أماكنها، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه ، وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به، يعرف بغزارة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعدّ لكل أمر عدّته وعتاده. ويهيّئ لكل وجه هيئته وعادته، فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب، وتفهموا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وأرووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيّعوا في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج"(16).

وندرك من هذه الوصية الأصول التي وضعها الكاتب للكتّاب القادمين وهي أن يزوّدوا أنفسهم بالعلوم والآداب وذكر منها ما يلي:

1- القرآن الكريم وعلومه
2- الفقه
3- العربية
4- الخط الجيد
5- معرفة الأشعار العربية ومفرداتها المعجمية
6- تاريخ العرب والعجم
7- الحساب

تطور الإنشاء والكتابة ومدارسهما في العصر العباسي

يعتبر العصر العباسي فترة ذهبية لتطور الأدب العربي بجميع أنواعه وذلك أنّه فترة ترجمت فيها العلوم اليونانية والهندية والفارسية وغيرها إلى اللغة العربية ، وهذه العلوم كثيرة منها: الفلسفة والمنطق والكيمياء والفيزياء والفلك والطب والرياضية ومنها القصص والروايات. وفي نفس العصر دونت دواوين الشعر الجاهلي بما فيها المعلّقات ،كما دوّن فيه بعض ما أنشأه العرب من خيار خطبهم ووصاياهم. وكذلك سجّل فيه الإنتاجات الشعرية والنثرية التي أنشأها العرب في عصر صدر الإسلام والفترة الأموية. ومما تميزت به هذه الفترة ما ظهر فيها من مذاهب فكريّة وفقهية وأدبية ونحوها كما تميّزت بمختلف الأحزاب السياسية من العلوية والأمويّة والخوارج والشعوبيّة والعباسية الحاكمة فتموّجت في الفترة تحت النقاش آراؤهم واتجاهاتهم والتيارات حول ما يجري في المجتمع من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية وغير ذلك.ومّما يعكس علينا القضايا الدينية حينئذ الخطبة التي ألقاها أبو الحسن الأشعري التي نبذ بها مذهب المعتزلة وهو على المنبر يوم الجمعة بالمسجد الجامع بالبصرة حيث قال:

"أيّها الناس من عرفني فقد عرفتي ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان،كنت أقول بخلق القرآن وأن الله تعالى لايرى بالأبصار، وأنّ أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب ، مقلع، متصد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم.

معاشر الناس، إنما تغيّبت عنكم هذه المدّة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلّة، ولم يترجح عندي شيئ على شيئ فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتبي هذه ،وانخلعت من جميع ماكنت أعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا".[17]

وفي تلك الظروف والأوضاع، وجد الإنشاء والكتابة تربة طيبة للنموّ والتطور فظهرت الخطب على ألسنة الخطباء تتدفّق ، واشتدّت المناظرة بين المذاهب الفقهية والفكرية ، كما اشتدّت بين المذهبين النحويين البصري والكوفي. وكذلك تطوّرت القصص على ألسنة القصّاصين ، والرسائل الديوانية على أيدي الكتاب الدبوانيين، واصطبغ النثر والشعر بالصبغة البديعية حتى اشتهر أدباء هذا العصر باسمهم المحدثون" لكثرة التّصنّع في أعمالهم الأدبية.

ديوان الإنشاء في العهد العباسي:

أما الكتابة في عهد بني العباس فكانت في ضمن الوزارة والوزير هو المتصرف في الديوان، وتحت يده جماعة من الكتاب، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء، وصاحب ديوان الرسائل، ومن أشهر الكتاب في الدولة العباسية عبد الله بن المقفع، وكان كاتبا لأعمام المنصور ومترجما له، والربيع بن يونس وكتب للمهدي، وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة وكانا كاتبين للمأمون. وكتب للمتوكل أحمد بن المدبّر وإبراهيم ابن الصولى ، وكتب للقادر إبراهيم بن هلالي الصابي. وكتب للناصر يحيى بن سعيد الواسطي المشهور بابن زيادة صاحب ديوان الإنشاء ببغداد، وعليه انتهت رياسة الترسل. وكتب للمستعصم عز الدين عبد الحميد بن هبه بن أبي هوته، فهو آخر كتاب الإنشاء لخلفاء بغداد. قال السيوطي: ومن الاتفاق الغريب أن آخر خلفاء بني أمية كتب له عبد الحميد الكاتب وآخر خلفاء بني العباس ببغداد كتب له من اسمه عبد الحميد. [18]

الديوان في العصر الفاطمي:

أما مصر فلم يكن بها ديوان للإنشاء من حين فتحت إلى أيام أحمد بن طولون، وحينما قوي أمرها في تلك الأيام أنشيء بها ديوان الإنشاء، واستمر إلى أن ملكتها الدولة الفاطمية، وفعظم شأن ديوان الإنشاء بها وأشهر كتاب الإنشاء بهذه الدولة أبو المنصور بن سورين النصراني، وكان كاتبا للعزيز بن المعز والحاكم. وأبو القاسم المعروف بابن الصيرفي، وقد كتب للأمير والحافظ، ويوسف ابن الخلال وهو أستاذ القاضي الفاضل، وكتب للحافظ والعاضد وكان يلقب صاحب الديوان في الدولة الفاطمية بكاتب الدست الشريف.ومن أشهر كتاب الإنشاء بالدولة الأيوبية القاضي الفاضل تمّ إليه الوزارة وكتب لصلاح الدين وابنه العزيز. [19]

نبذة يسيرة عن حياة عبد الله بن المقفع (106-14هـ).

هو فارسي نشأ بين أبناء العرب بالبصرة كان أبوه روزويه" من جباة الخراج للحجَّاج، ولما ظهرت له خيانته في الأموال ضربه الحجاج حتى تقفعت يده ويبست فلقب بالمقفع وهو مجوسي، ثم أسلم على يد عيسى بن علي عم المنصور وعامله على الأهواز وبعد إسلامه يكنى بأبى محمد ويسمى عبد الله بدلا من "روزويه".وقد وجهه أبوه منذ صغره إلى تعلم الفارسية وصناعه الكتابة حتى نبغ فيهما وأما الثقافات العامة له فهي وروده مجامع الفقهاء والرواة ورجال اللغة والأدب ومنتدى الشعراء والخطباء وأهل المذاهب المختلفة ومِرْبَد البصرة ، و لما ذاع صيته استكتبه داود بن يوسف في عصر بنى أمية ولم يكن له مثيل إلا عبد الحميد الكاتب صاحبه.ولما جاء العصر العباسي صار كاتبا للدولة العباسية فترجم للمنصور من اليونانية المنقولة إلى الفارسية إلى اللغة العربية ولم يزل في خدمة أعمام الخليفة حتى أمر المنصور الخليفة بقتله سنة 142 بدعوى أنه زنديق.

أسلوبه:

توخّي سهولة التعبير، والعناية بالمعنى ، وعدم المبالاة بالسجع ،وترك الكلام يجري على طبيعته مرسلا، وربما تصعَّب أسلوبه في الفلسفة وفقا للموضوع وهو بحق إمام الطبقة الأولى من الكتَّاب.

من كتبه:

1- كليلة ودمنة نقلها عن الفارسية.
2- التاج في سيرة أنو شروان.
3- سير الملوك.
4- رسالة في الأخلاق.
5- الأدب الصغير.
6- الأدب الكبير.

من كلامه في الأخلاق:

"كان لي أخ أعظم الناس في عيني. وكان رأس ما عظَّمه في عيني صغر الدنيا في عينه. كان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهي مالا يجد، ولا يكثر إذ وجد. وكان خارجا من سلطان لسانه فلا

يتكلم بمالا يعلم، ولا يماري فيما علم. ولا ينتقم من العدو. ولا يغفل عن الوالى. فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع". (20)

ومن الكتب التي لاتزال تؤثرفي إنشاء الخطب البليغة والكلام الفصيح ما يلي:

1- البيان والتبيين في البلاغة للجاحظ

2- البخلاء للجاحظ.

3- كتاب العين من معاجم اللغة العربية للخليل بن أحمد الفراهيدي.

4-الكتاب (في النحو والصرف) لسيبويه.

5-ومن أمهات الكتب في الإنشاء والكتابة أدب الكاتب لابن قتيبة. وقد وضع أدوات الكتابة للكاتب فيه حيث قال:

> وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم، ومن الكتابة إلا بالاسم، ولم يتقدم من الأداة إلا بالقلم والدواة، ولكنها لمن شدا شيئًا من الإعراب: فعرف الصّدر والمصدر، والحال والظرف، وشيئا من التصاريف والأبنية، وانقلاب الياء عن الواو، والألف عن الياء، وأشباه ذلك.....ولا بد له مع كتبنا هذه من النظر فى الأشكال لمساحة الأرضين، حتى يعرف المثلث القائم الزاوية، والمثلث المنفرج، ومساقط الأحجار، والمربّعات المختلفات، والقسيّ المدورات، والعمودّين، ويمتحن معرفته بالعمل فى الأرضين لا فى الدفاتر، فإن المخبر ليس كالمعاين؛.....ولا بد له مع ذلك من النظر فى جمل الفقه، ومعرفة أصوله: من حديث رسول الله ε وصحابته، كقوله: البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه، إلخ.....ولا بدّ له من ذلك من دراسة أخبار الناس، وتحفظ عيون الحديث؛ *ليدخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا إذا كتب، ويصل بها كلامه* إذا حاور. ومدار الأمر على القطب، وهو العقل وجودة القريحة؛ فإن القليل معهما بإذن الله كاف، والكثير مع غيرهما مقصر.
>
> ونحن نستحبّ لمن قبل عنا وائتمّ بكتبنا أن يؤدّب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذّب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب قبل مجانبته اللحن وخطل القول شنيع الكلام ورفث المزح.....ونستحب أن يدع فى كلامه التّقعير

والتقعيب.....فهذا وأشباهه كان يستثقل والأدب غضّ والزمان زمان، وأهله يتحلّون فيه بالفصاحة، ويتنافسون فى العلم، ويرونه تلو المقدار فى درك مايطلبون وبلوغ ما يؤمّلون، فكيف به اليوم من انقلاب الحال، وقد قال رسول اللهﷺ "فإن أبغضكم إليّ الثّرثارون المتفيهقون المتشدّقون"؟؟!!.....ونستحبّ له إن استطاع أن يعدل بكلامه عن الجهة التى تلزمه مستثقل الإعراب؛ ليسلم من اللحن وقباحة التقعير؛.....*ونستحب له أيضا أن ينزّل ألفاظه* فى كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وأن لا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيع الكلام؛ فإني رأيت الكتّاب قد تركوا تفقّد هذا من أنفسهم، وخلّطوا فيه؛ فليس يفرقون بين من يكتب إليه "فرأيك فى كذا" وبين من يكتب إليه "فإن رأيت كذا" و"رأيك" إنما يكتب بها إلى الأكفاء والساوين، لا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأستاذين؛ لأن فيها معنى الأمر،..... وقال أبرويز لكاتبه فى تنزيل الكلام: "إنما الكلام أربعة: سؤالك الشيء، وسؤالك *عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرك عن الشيء*؛ فهذه دعائم المقالات إن التمس إليها خامس لم يوجد، وإن نقص منها رابع لم تتم؛ فإذا طلبت فاسجح، وإذا سألت فأوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقق" وقال أيضا: "واجمع الكثير مما تريد فى القليل مما تقول" يريد الإيجاز، وهذا ليس بمحمود فى كل موضع، ولا بمختار فى كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محمودًا فى كل الأحوال لجرّده الله تعالى فى القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرّر تارة للإفهام، وعلل هذا مستقصاة فى كتابنا المؤلف فى "تأويل مشكل القرآن" وليس يجوز لمن قام مقاما فى تحضيض على حرب أو حمالة بدم أو صلح بين عشائر أن يقلّل الكلام ويختصره، ولا لمن كتب إلى عامّة كتابا فى فتح أو استصلاح أن يوجز. ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير عن المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكؤه فى بيعته "أمّا بعد فإني أراك تقدّم رجلا *وتؤخّر أخرى*، فاعتمد على أيتهما شئت، والسلام" لم يعمل هذا الكلام فى أنفسها عمله

في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرّر، ويعيد ،ويبدىء، ويحذر، وينذر.

هذا منتهى القول فيما نختاره للكاتب؛ فمن تكاملت له هذه الأدوات؛ وأمدّه الله بآداب النفس من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكون الطائر، وخفض الجناح فهذا المتناهي في الفضل، العالي في ذرى المجد، الحاوي قصب السبق، الفائز بخير الدارين، إن شاء الله تعالى.[21]

ومثل ما نقول في هذا الكتاب يقال في الكتب التالية:

1-أدب الكتاب للصولي

2-الجمهرة لابن دريد

3-الصّحاح للجوهري

تطور الإنشاء والكتابة ومدارسهما في العصر التركي

بدأ العصر التركي بسقوط بغداد عاصمة الدولة العباسية في قبضة التتار بقيادة "هولاغو" فانتقلت الدولة وزمام الأمر إلى أيدي المماليك الأتراك

وأنبه أصحاب الديوان ذكرا في عهد المماليك محي الدين بن عبد الظاهر، وأول من سمي كاتب السر بالديار المصرية ابنه فتح الدين ابن عبد الظاهر ولي ديوان الإنشاء في عهد المنصور قلاوون، ومن كتاب السر المشهورين في هذا العهد تاج الدين بن الأثير وكتب للأشرف خليل، ومحي الدين ابن فضل العمري، وشهاب الدين بن فضل الله، وشرف الدين بن فضل الله والشهاب محمود الحلبي، وكتبوا للناصر. وشمس الدين محمد بن مزهر وكتب للمؤيد.

صفات صاحب الديوان وأعماله: وكان كاتب السر في عهد المماليك في أرفع محل وأشرف قدر ،إليه تلقي أسرار المملكة، وبرأيه يستضاء في حل مشكلا تها، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصرف، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ويقوم توقيعه في القصاص أحيانا مقام توقيع السلطان.وقد أطال صاحب صبح الأعشى فيما يجب أن يتحلى به صاحب الديوان من العلم والأخلاق والصفات السياسية، ثم شرح أعماله في إسهاب:

"وهي أن يتصفح هو أو نائبه جميع ما يكتبه كتاب ديوانه من الولايات والمنشورات والمكاتبات، وأن يتلقى المكاتبات الواردة ،ويقرأها على السلطان، ويجيب عنها، وهو الذي ينظر البريد، واختيار من يرسل إلى التخرج في الشئون السلطانية.[22]

تطور الإنشاء والكتابة ومدارسهما في العصر الحديث

وفي العصر الحديث تطورت فنون النثر في المجالات الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية وغير ذالك .فالمدارس النثرية الحديثة عديدة منها: المؤسسات العلمية ، وأجهزة الإعلام، والأندية الأدبية ، والخطباء، والكتاب الأحرار، وفرق المسرحيات ، وغيرهم. وللكتاب نصيب الأسد في ميدان الأدب . ومما كتبوه الرسائل الرسمية والإخوانية ،والمقالات على اختلاف أنواعها، والقصص والأقاصيص ، والروايات، والمسرحيات، وظهرت الصحف ، والجرائد منها اليوميات ، والأسبوعيات ،والشهريات ،والدوريات وكذلك تطورت المجلات الأدبية والعلمية، وفنون النثر المكتوب ، والأخبار التي تقرأ من دور الإذاعة والتلفزيون والأقمار الصناعية.[23]

الخاتمة:

نرى أن ما أنشأه العرب في الجاهلية من وصايا وخطب وغيرهما قد تميز عن النثر الإسلامي بقلة التأنق في اختيار الألفاظ أوقلة الملائمة بين المعاني في الجمل والعبارات المتآلفة ، وكثرة الإيجاز والخلو من التكلُّف، وتعمد الصناعة ، وغلبة السجع ومراعاة الفواصل.

وأما خصائص الخطابة والكتابة في صدرالإسلام والعصر الأموي فمنها :

1- امتياز أسلوب الخطابة في هذين العصرين بسهولة الألفاظ، وقوة التراكيب وابتداء الكلام بكلمات الحمد والثناء على الله.

2- كثرة الاقتباس من آيات القرآن ومحاكاة أسلوبها.

3- خلوها من سجع الكهان.

4- تخير الألفاظ للكتابات.

4- تخير الألفاظ للكتابات.

5- التأنق في صوغ العبارات.

6- تحلية الكتابات بالاقتباسات من القرآن والحديث.

7- تضمينها تشبيهات الشعر.

8- تزينها بضرب الأمثال والحكم.

9- التقليل من استعمال الغريب والحوشي من الألفاظ.

10-التباعد عن التعقيد اللفظي وتنافر الأفكار.

11- تنويع صور الابتداءات.

ثم لاحظنا أن الأدب قد تقدم في العصر العباسي بجميع أنواعه. إذ في هذا العصر دوّنت العلوم اللغوية من نحو وصرف وبلاغة ونقد وعروض ورسم الحروف وتجويد كما دوّنت العلوم الشرعية من توحيد وفقه وتفسير وتاريخ وفيه أيضا ترجمت العلوم اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية حتى صار هذا العصر نقطة تحول في التاريخ الأدبي. وفي هذا العصر تقدم أيضا النثر الفنى على أيدي ابن العميد والبديع الهمداني والحريري إلا أنه تميز بأنواع البديع وغلبة السجع وغيره.

ومن أبرع ما أنشئ في ميدان النثر الذي ظلّ ولا يزال يؤثر في منثور الأدباء المتأخرين مقامات الهمداني، ومقامات الحريري. هذا، وقد وضع أدباء هذه الفترة اللبنة الأولى للمدارس النثرية من تيار التّسجيع، وتيار الترسّل في المخاطبة والمكاتبة وغيرها من فنون الكلام ، إلا أن التيار الغالب الآن هو فن الترسل الذي لا يتقيد صاحبه بالسجع والبديعيات.

الهوامش:

1- عبد الباسط الأسمى (1318هـ)، **أبدع الأساليب فى إنشاء الرسائل والمكاتيب**، مطبعة جريدة بيروت، ص 7.

2- مكتبة المشهد الحسيني (1964م) **أساليب الإنشاء فى مراسلات الأصفياء**، مطبعة المشهد (أ.د)حسيني مصر، ص 7.

3- محمد عطية الإبراشى وقاسم أمين (1948م) **الإنشاء الواضح للمدارس الابتدائية** مطبعة البصير، الإسكندرية مصر، ص 3

4- عثمان عبد السلام الثقافي (1988م) **علم الإنشاء: أصوله ومذاهبه مع التطبيق**، مكتبة المعلم زكريا باباتندي نافع الإلوري ، إلورن، نيجيريا، ص 5.

5- مكتبة المشهد الحسيني المرجع السابق ، ص 7.

6- عبد الباسط الأسمى، المرجع السابق، ص 11

7- محمد محمد خليفة (1990م)، **الأدب والنصوص فى العصرين الجاهلى وصدر الإسلام**، الهيئة العامة لشئون الطباعة الأميرية، القاهرة، ص 66-67.

8- أحمد الإسكندري وآخرون ،(المرجع غير مؤرخ) **المفصل في تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية** ،ج *1* ص *88-89*

9- عبد الباسط الأسمى ، المرجع السابق ، ص 11

10- محمد محمد خليفة ،المرجع السابق، ص ص 131-135.

11- أحمدالإسكندري وآخرون(1952م)،**المنتخب من أدب العرب**،ج4،دارالمعارف،مصر، ص ص154-155

12- سعد حسين عمر مقبول وعبد المجيد محمد زكريا (1427هـ) **الأدب والنصوص والبلاغة**، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، ص 224

13- المرجع نفسه، ص 232

14- عثمان عبد السلام الثقافي(2005م)،**تاريخ الأدب العربي للصفوف المتوسطة**،مطبعة إذن الله،إلورن،ص 57

15- المرجع نفسه ، ص 58

16- عبد الرحمن بن خلدون(2004م)،**مقدّمة ابن خلدون**،تحقيق حامد أحمدالطاهر، دار الفجر للتراث،القاهرة،ص 309

17- محمد أبوزهرة(1971م)،**تاريخ المذاهب الإسلامية**، دار الفكر العربي،القاهرة ج1،ص181

18- أحمد الإسكيندري وآخرون ، **المفصل في تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية** ،ج 1 ص 197

19- المرجع نفسه، ص 197

20- عثمان عبد السلام الثقافي،**تاريخ الأدبي العربي** ،**المرجع** السابق،ص ص 77-79

21- ابن قتيبة -أبومحمد عبدالله بن مسلم- (2009م) **أدب الكاتب**،**دارالطلائع القاهرة**،**مصر**،**ص34**

22- أحمد الإسكندري وآخرون ، **المفصل في تاريخ الأدب العربي** ، المرجع السابق، ج 1، ص198

23- المرجع نفسه، ص ص 295-296